الحاج علي بوطالب المعسكري ودوره في التحالف العثماني-الألماني-المغربي ضد الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا.

محمد سعيد قاصري*

مقدمة:

إن المتتبع لتاريخ الجزائر خلال القرن 19 ومطلع القرن 20 ليجده غني بالشخصيات الجزائرية التي لعبت دورا كبيرا في مناهضة الاستعمار الفرنسي بمختلف أشكاله وأساليبه، سواء كان ذلك داخل الجزائر أو خارجها. ومن بين هذه الشخصيات الحاج علي بوطالب المعسكري الجزائري، الذي عاصر أحداثا سياسية متقلبة في كل من الجزائر والمغرب والمشرق العربي؛ خصوصا مع نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 الذي شهد تقلبات سياسية وأحداث دولية صعبة للغاية.

وعليه فالحاج علي بوطالب لم يبق مكتوف الأيدي أمام ما تعيشه الجزائر والمغرب من غطرسة وهيمنة أوربية وتحالفات دولية، ولذلك راح يبحث عن الطريقة أو الوسيلة المثلى التي يحارب بها عدوه اللدود فرنسا، فلاحت له فرصة لتقريب وجهات النظر وعقد تحالف بين كل من: الدولة العثمانية وألمانيا والمغرب، ضد الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا.

وبناء على هذه الافتتاحية يمكننا طرح مجموعة من التساؤلات حول هذه الشخصية : من هو الحاج علي بوطالب؟ وإلى أي مدى نجح في تكوين تحالف عثماني- ألماني-مغربي ضد الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا؟ ما هي ملامح ومظاهر هذا التحالف ؟ أين يتجلى لنا دور الحاج علي بوطالب في محاربة الاستعمار الفرنسي خصوصا في الجزائر والمغرب الذي كان محل تنافس وأطماع الدول الأوربية؟ ما هو موقف فرنسا من نشاط الحاج علي بوطالب المعادي لها؟ ما هو موقع الحاج علي بوطالب في الذاكرة الجزائرية؟ وما هو موقعه في الكتابات المغربية الحديثة التي راحت تتهمه بالعمالة لألمانيا والتجسس على المغرب لصالحها؟. سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها ضمن خطة عمل تتمحور في العناصر التالية:

* أستاذ محاضر بقسم التاريخ.جامعة المسيلة،الجزائر

1-التعريف بالحاج علي بوطالب:

1-1.مولده ونسبه:

ولد الحاج علي بوطالب بن سيدي أحمد بن سيدي بوطالب بن مصطفى بن محمد بن المختار الحسني الجزائري بمدينة معسكر ما بين سنتي 1820 و1825م[1]، ومن خلال نسبه هذا يكون جده سيدي بوطالب هو شقيق الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، أي أنه من أبناء عمومته[2].

1-2. نشأته:

نشأ في وسط عائلة محافظة وميسورة الحال؛ تربى في كنف والديه إلى جانب أخويه سيد ي محمد وسيدي عبد القادر، وكعادة أهل الغرب الجزائري يكون قد تلقى مبادئ القراءة والكتابة وتعلم القرآن الكريم ومبادئ العلوم الأخرى في سن مبكرة.

غير أن ظروف الحياة لم تكن مناسبة ومستقرة فمنذ أن بلغ سن الثامنة حتى بدأت تلوح في الأفق طلائع الجيوش الفرنسية في الغرب الجزائري بعد احتلالها لكل من الجزائر العاصمة سنة 1830 ومدينة وهران سنة 1831، وظهور بوادر الكفاح المسلح بقيادة الأمير عبد القادر بطل المقاومة المسلحة في الغرب الجزائري.

وعليه فهذه الأجواء لم تسمح لعلي بوطالب ولأقرانه بتلقي المزيد من العلوم والمعارف، خاصة بعد توغل الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال "كلوزيل" واقتحامهلمدينة معسكر خلال شهر ديسمبر 1835 وحرقه لها بعدما قام الأمير بإجلاء السكان منها[3].

إن المتتبع لمسار هذه الأحداث يمكنه القول: إن علي بوطالب عاصر وعايش مقاومة الأمير عبد القادر؛ ورُسمت في ذهنه أثناء طفولته صورة الجندي الفرنسي الغازي والمتوحش الذي لم يرحم كبيرا ولا صغيرا، وصور أشلاء الموتى والجرحى المتناثرة هنا وهناك عقب كل هجوم أو غزو للعدو، ناهيك عن مظاهر

الحرق والخراب والدمار المنتشرة في كل مكان..الخ. وبالتالي فإن هذا الجرائم الفرنسية البشعة سعُد فيما بعد عامل أساسي ورئيسي في صقل وتكوين شخصيته المناهضة للاستعمار الفرنسي.

-هجرته إلى المغرب الأقصى.

من خلال تتبعنا لمسار هذا الرجل وقفنا على أن الحاج علي بوطالب هاجر برفقة والده وأخويه ضمن قافلة المهاجرين الجزائريين الأشراف -التي كان على رأسها الفقيه ابن عبد الله السقاط- نحو المغرب بعد سقوط زمالة الأمير عبد القادر سنة 1843[4]، ويحدد لنا "ميشو بلار" جملة المهاجرين الجزائريين نحو المغرب الذين ينحدرون من عائلة بوطالب في ما يلي:

-أولاد سيدي بوطالب شقيق محيي الدين الذي هاجر ضمن قافلة المشرفيين برفقة كل من ولديه:

1-سيدي أحمد الذي لم يستقر به المقام في المغرب فهاجر نحو سوريا، ثم عاد إلى معسكر التي توفي بها؛ وترك لنا ثلاثة أبناء هم[5]:

- سي محمد الذي مات بسوريا.
- الحاج علي بوطالب (صاحب ترجمتنا) الذي لم يستقر به المقام في فاس حسب "ميشو بلار" كونه انتقل إلى مدينة طنجة وطلب الجنسية والمواطنة التركية.
- سيدي عبد القادر الذي كان في سوريا مع أبيه وإخوته ورجع إلى معسكر وأصبح قاضيا ثم توفي بعد ذلك.

2-سي عبد القادر الذي لم يلبث أن توفي بمدينة فاس ، وخلّف عدة أبناء أبرزهم: سي محمد الذي استقر بطنجة حيث امتهن حرفة التجارة لعدة سنوات، وبعد أن توفي هو الآخر ترك وراءه ابنا ظل يعيش في طنجة، وعرف باسم مولاي أحمد بوطالب.

ويضيف " ميشو بلار" شخصية أخرى من هذه العائلة غادرت هي الأخرى مدينة فاس باتجاه مدينة طنجة وهو المولود بوطالب، غير أنه لم يستقر به المقام بهذه المدينة إذ سرعان ما هاجر نحو سوريا وبها وافته

المنية[6]، ثم يعرّج بالإشارة في الأخير إلى أولاد بوطالب الذين استقروا بفاس وخصوصا في حي سيدي عبد القادر الفاسي وكانوا قد استأجروا عدة منازل لهم، من دون أن يحدد لنا عدده م ولا أسمائهم[7].

لقد مكث الحاج علي بوطالب بمدينة طنجة ردحا من الزمن استمر من سنة 1843 إلى غاية سنة 1855[8] تاريخ انتقال الأمير عبد القادر من مدينة بروسة إلى مدينة دمشق، فكان ت عائلة سيدي أحمد بوطالب السابقة الذكر من جملة المهاجرين الجزائريين نحو سوريا انطلاقا من مدينة طنجة[9].

وطيلة مدة مكوثه بالمغرب التي تقدر بحوالي عشر سنوات تكون قد سكتت المصادر – التي حاولنا الاعتماد عليها– في الحديث عن هذه الشخصية، إما لتهميش عائلته من طرف السلطان المغربي أو بسبب التقلبات السياسية التي كان يمر بها السلطان في علاقاته مع الأمير عبد القادر والتي لم تسمح له بالظهور على مسرح الأحداث. خاصة إذا كنا نعلم أن عائلة الأمير وأهل دائرته المتواجدين بالمغرب الشرقي أصبحوا من المغضوب عليهم. وخير مثال على ذلك ما تعرض له العلامة أبو حامد العربي المشرفي[10].

–انتقاله إلى سوريا:

هاجر إلى المشرق بوقة والده وأخويه سيدي عبد القاد ر وسيدي محمد ؛ وإذا كانت المنية قد استعجلت شقيقيه فإن علي بوطالب ظل على قيد إلى جانب والده الذي ظل مرافقا للأمير عبد القادر بدمشق. وخلال مدة بقائه بسوريا التي استمرت من تاريخ التحاق عائلته بالأمير إلى غاية سنة 1877 تاريخ عودته إلى الجزائر رفقة والده[11]؛ تكون قد سكتت المصادر مرة أخرى في الحديث عنه؛ وهو ما يجعلنا

سنتطلع إلى المزيد من البحث حول هذه الشخصية التي سيكون لها دور كبير وجلي في المغرب الأقصى بعد عودته من المشرق العربي.

ورغم هذا الغموض فإننا سنحاول إبراز موقعه في المشرق العربي من خلال بعض الإشارات والدلائل التي توصلنا إلى جمعها؛ وتسليط الضوء قدر المستطاع على بعض الجوانب الغامضة في دوره بالمشرق. ومن بين هذه الإشارات والدلائل:

1. -انطلاقا من صلة القرابة التي تجمع بين والده والأمير عبد القادر، فلا شك أن عائلته تكون قد حضيت بمكانة معتبرة من طرف الوالي العثماني بسوريا خصوصا وببلاد الشام عموما.
2. -كثرة احتكاكه بالأمير عبد القادر الذي يكون قد صقل شخصيته ومده بالمزيد من الأ فكار والتوجيهات التي سيكون لها تأثير قوي في بناء وتكوين شخصيته النضالية.
3. -سمحت له الفرصة بتحصيل المزيد من العلوم والمعا رف كون الأمير كان رجل علم ودرس خصوصا ما كان يلقيه من دروس في الجامع الأموي بدمشق.
4. كثرة احتكاكه بإخوانه الجزائريين المهاجرين ببلاد الشام تكون قد وسّ عت مداركه حيث لكل مهاجر قصته مع الاستعمار الفرنسي في الجزائر.
5. -اطلاعه ووقوفه على مجمل النشاطات والتحركات الجاري العمل بها في المشرق خصوصا ما تعلق بالإصلاحات العثمانية وظهور فكرة الجامعة الإسلامية ؛ وإصلاح الدستور العثماني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.
6. قيامه بالعديد من الزيارات إلى ولايات الشام الأخرى؛ وإذا كنا لا نستطيع تحديد المناطق التي زارها بالضبط فإن بعض الإشارات أرشدتنا إلى كثرة زياراته نحو مدينة بيروت وتأكيد وجوده بها مرارا . ومن بين الشخصيات الأوربية التي وطّد علاقاته بها الدبلوماسي الألماني "ماكس ويبر M. WEBER" حيث تمت بينهما معرفة وثيقة وترسخت بينهما علاقات ودية[12].

–عودته إلى الجزائر:

عاد إلى الجزائر برفقة والده في حدود سنة 1877[13] حاملا معه أفكارا مناهضة للاستعمار الفرنسي، وعليه فبمجرد دخوله أرض الوطن بدأ في تجسيد أفكاره التحررية بالجزائر . ورغم كل الإجراءات التي قامت بها السلطات الفرنسية لاحتوائه مقابل مجموعة من الامتيازات والإغراءات على غرار بعض الأفراد من عائلة بوطالب الذين قبلوا بممارسة وظيفة القضاء للفرنسيين في وقت مبكر[14]، لكنها وجدت نفسها أمام شخصية قوية متشبعة بمبادئها الوطنية وترفض كل الإغراءات الفرنسية.

ونظرا للخطر الذي بات يشكله قامت السلطات الفرنسية بمصادرة ممتلكاته ونفيه من الجزائر ؛ فاختار الحاج علي بوطالب المغرب الأقصى الذي سبق وأن هاجر إليه مكرها وهذه المرة نُفي إليه مرغما.

نفيه إلى المغرب الأقصى:

تم نفيه من الجزائر في حدود سنة 1295هـ/ 1878م[15]، وبحكم معرفته السابقة للمغرب وبحكم تواجد أبناء عمومته من المهاجرين الجزائريين بمدينة طنجة فإن علي بوطالب يكون قد اختار هذه المدينة للاستقرار بها مرة ثانية . وإذا كان نشاطه بالمشرق العربي غير معروف بشكل كبير قبل سنة 1878 فإنه أصبح جلي وواضح في المغرب بعد هذا التاريخ؛ وهذا بسبب ما وقفنا عليه من مادة علمية حول نشاطه في المغرب.

وبهذا الخصوص تذكر أح د الروايات الفرنسية أن الحاج علي بوطالب توجه في بداية الأمر إلى المفوضية الفرنسية بطنجة لكنه وقع سوء تفاهم بينه وبين الدبلوماسيين الفرنسيين؛ جعلهم يستقبلونه على نحو غير لائق، الشيء الذي يكون قد دفعه حسب أبو القاسم سعد الله [16] إلى مراسلة المفوضية الألمانية التي كان على رأسها الوزير السيد "ويبر Weber"؛ وبناء على علاقة هذا الأخير بالحاج علي بوطالب التي

توطدت بينهما في مدينة بيروت، فإن "ويبر" لم يتوان في تقديم خدماته وتسهيلاته لصديقه الذي جمعته به الصدف مرة أخرى.

ويحاول "ميشو بلار" تبرير هذا التصرف من طرف "ماكس ويبر" باتجاه الحاج علي بوطالب بقوة شخصيته وبأفكاره المناهضة للاستعمار الفرنسي؛ وبناء على علاقة التوتر الألماني–الفرنسي يكون "ويبر" قد استغل هذه الفرصة الثمينة لاستغلال بوطالب في خدمة المصالح الألمانية بالمغرب[17].

وإذا أردنا مناقشة الرأي الأول لأ بي القاسم سعد الله فإننا نستبعد فكرة عدم تعامله مع المفوضية الفرنسية بطنجة بسبب سوء التفاهم الذي وقع بينه م ا، وتعاملهعلى إثرها مع المفوضية الألمانية؛ لأن الفرنسيين في نظرنا هم أعداؤه بالدرجة الأولى وهم من صادروا ممتلكاته وطردوه ونفوه من الجزائر ؛ هذا إلى جانب أن المغرب كان يشهد حينها تنافسا حادا وقويا بين عدة أطراف أوربية : بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وايطاليا..الخ، وعليه يمكن القول: إن الحاج علي بوطالب يكون قد استعان بالألمان لضرب خصمهوعدوه الحقيقي فرنسا، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن المغرب كان مجالا خصبا للدعاية الأ لمانية–العثمانية ضد فرنسا ؛ وعليه فتعاونه مع ألمانيا رأى فيه في نظرنا انتصارا لوطنه و للدولة العثمانية، ولأفكار الجامعة الإسلامية التي كانت تُروّج بالمغرب.

هذا إلى جانب كونه كان حديث عهد بتواجده بالمشرق العربي؛ وكان على صلة كبيرة ب الدبلوماسي الألماني "ماكس ويبر"؛ الذي كان على صلة كبيرة بالأمير عبد القادر ، وبحكم أن الحاج علي بوطالب من أقارب الأمير فإننا لا نستبعد فكرة تو سط الأمير عبد القادر لدى "ويبر" عندما عين وزيرا لألمانيا بطنجة بضرورة الاهتمام بالحاج علي بوطالب. وهذا الرأي تشاطره معلمة المغرب عندما ذكرت بهذا الخصوص: إن الحاج علي بوطالب قد وظّفه "ويبر" لديه عندما عيّن وزيرا لألمانيا بطنجة[18].

وبالتالي فلجوئه إلى المفوضية الألمانية بطنجة لم يكن من باب الصدفة، ولم يكن من باب تقصير المفوضية الفرنسية في التعامل معه عندما تقدم إليها بطلب معونة مالية؛ وإنما يعو د في نظرنا إلى المعطيات التالية:

1. علاقة الصداقة التي جمعت بين الحاج علي بوطالب وماكس ويبر.
2. مناهضته لفرنسا عدوه اللدود التي شردته وشردت عائلته الأم بعدما احتلت وطنه.
3. دور الأمير عبد القادر في توجيه هذه الأحداث لصالح الطرف الألماني؛ وبحكم صلة الأمير القوية بألمانيا التي باتت تبحث عن حلفاء لها للوقوف في وجه فرنسا.
4. الإطلاع الواسع للحاج علي بوطالب على مسألة التقارب الألماني- العثماني التي كان جاري العمل بها في المشرق العربي.

بعد التحاقه بمدينة طنجة المغربية لم يتوان الحاج علي بوطالب في القيام بعدة نشاطات معادية لفرنسا في كل من المغرب والجزائر، نشاطات نعتقد أنها جلبت له دون شك كثير من الانتقادات من طرف بعض الباحثين الذين شوّهوا لنا صورة هذه الشخصية، واتهموها بالعمالة للألمان؛ وبالتجسس لصالحهم وبازدواجية الخطاب والجنسية.

غير أننا ما سنتطرق له في هذا المقال يفن د ذلك تماما . اللهم إلا إذا كان هذا النقد من باب عدم الاعتراف بجهود الآخرين؛ أو لقصور النظر في فهم مجريات الأحداث الدولية والتقلبات السياسية والدولية التي كان يشهدها العالم آنذاك . أو بسبب فهم أن النضال التحرري يجب أن يكون حبيس البلد الذي ينتمي إليه ذلك الش خص. فهؤلاء الأشخاص الذين هم على شاكلة الأمير عبد القادر، والشيخ طاهر الجزائري[19]، والأمير عبد المالك[20]، وعلي الحمامي[21]، والفضيل الورتلاني[22] ..الخ، لم يكونوا يؤمنوا بملازمة القطرية الضيقة ولا بالنضال التحرري المحدود جغرافيا.

نشاطه التحرري المعادي لفرنسا في المغرب الأقصى والجزائر:

أما بخصوص النشاطات التي قام بها في كل من المغرب والجزائر المعادية للاستعمار الفرنسي ، في إطار التحالف العثماني-الألماني-المغربي فيمكننا تناولها وفق العناصر التالية:

1-دعمه للمخزن المغربي: يمكن إبراز نشاطاته التي وقفنا عليها بالمغرب لصالح المغرب سلطة وشعبا في النقاط الآتية:

1-1. مساهمته الصحفية الفعالة في دعم جريدة المغرب [23] التي كان مراسلا لها؛ إلى جانب عدة مراسلين مغاربة في بعض المدن كعمر برادة بفاس، وعبد السلام برادة بتطوان، والطيبي بن عبد الله بالجديدة، ويوسف أفندي نميرو بالرباط[24]. وتكمن مساهمته في عديد المقالات التي كان يرسل بها إلى المجلة؛ ومن بين أهم ما كتبه فيها:

أ-تعزيز البلاط المغربي وتثمين نظام الحكم بقرض الشعر، ومن أمثلة ذلك قصيدته في مدح السلطان المغربي التي جاء في مطلعها[25]:

هبوا بنا نحو أرض الغرب وافتقدوا % من طار صيتهم في الكون وانفردوا.

إلى أن يقول في نهايتها:

هو المليك العزيز السيد الحكم % العدل الفريد الهمام الفاتك الأسد.

1-2. إخطار السلطان المغربي بالمخططات والمؤامرات الفرنسية التي كانت تُحاك ضد المغرب، وهو ما يتجلى في جملة الرسائل كثيرة اللحن التي كان يُخبر من خلالها السلطان بما كانت تكتبه الصحف الأجنبية حول المغرب سنة 1888؛ وبما كانت تحاول فرنسا القيام به من الهجوم على واحة فجيج[26].

1-3. كتب في سنة 1889 مقال موسوم بـ: الدلالة بطنجة؛ ردّ فيه على مقال صدر ضده من قبل أحد الأشخاص، وهو جورج المتقلب بين النصرا نية والإسلام؛ ومما جاء فيه بخصوصه : «القنصل المدعي بالباشادورية...الذي اختاره تاجر الحمايات موضعا لحفظ سره ...وتظاهر بالنصرانية، ودعي نفسه جورج، ولم يلبث حتى عاد فادعى بالإسلامية، وكان يتزيا بزي علماء اسطنبول، فلبس تلك البذلة الخضراء، واعتم بالعمامة البيضاء، لكي يخيل للبسطاء أنه شريف مكاوي»[27].

1-4. مرافقته لوزير ألمانيا تاتنباخ (Comte Tattenbagh) الموجود بفاس عند توسطه لدى المخزن المغربي في حل قضية الجزائري بوزيان المليانى [28] عشية مؤتمر الجزيرة الخضراء. أثناء سفارة سان رُني طياندي Saint-René Taillandier[29] إلى فاس الهادفة إلى زيادة النفوذ الفرنسي بالمغرب عبر إجبار المخزن على قبول المشاريع الإصلاحية الفرنسية [30]. ولقد أثمرت هذه الوساطة بإطلاق سراح بوزيان من طرف المخزن المغربي وتقديم اعتذارات ودفع تعويضات لصالحه[31].

2-دعمه للمقاومة الجزائرية:

نظرا للدور الفعال الذي قام به الحاج علي بوطالب لصالح كل من ألمانيا والدولة العثمانية، يكون ذلك قد لفت انتباه المفوضية الفرنسية بالمغرب التي باتت تتخوف من كل تحركاته المشبوهة، وعليه سعت

جاهدة إلى محاولة استقطابه وتوظيفه لخدمة مصالحها في المغرب؛ فقامت بإجراء عدة اتصالات معه وبإيعاز من السلطات المغربية.

لقد أثمرت هذه الاتصالات في الأخير بقبوله كوسيط لديها مع الشيخ بوعمامة [32]؛ لمحاولة إقناعه بتوقيف القتال والقبول بالاستقرار في المغرب برفقة عائلته، مقابل العديد من الامتيازات التي أقنعت السلطات المغربية بتوفيرها له في حالة نجاح هذه الوساطة. والسؤال المطروح هنا هو كيف تعامل الحاج علي بوطالب مع هذه المسألة؟.

لا نعتقد أن الحاج علي بوطالب المتشبع بالمبادئ الوطنية والأفكار التحررية والنضالية ضد الاستعمار الفرنسي قد انطلت عليه حيلة الفرنسيين؛ والشيء الغريب في هذه المسألة هو أ نه قبل بتمثيل هذا الدور ولكن ليس كما أرادت له فرنسا . فبمجرد التقاء الرجلين مع بعضهما البعض راح الحاج علي بوطالب يبعث في نفس بوعمامة الحماس ويشجعه على مواصلة الكفاح المسلح ضد الفرنسيين، شارحا له مخططاتهم ومؤامراتهم الرامية لاحتلال المغرب.

لقد أسفرت هذه الوساطة حسب ما خطط لها الحاج علي بوطالب عن الفشل، حيث نقل إلى الفرنسيين رفض بوعمامة لكل المطالب والاقتراحات الفرنسية، ولم يكتف بذلك بل نقل لهم تصميم بوعمامة على مواصلة الكفاح حتى آخر لحظة . غير أن العيون والجواسيس التي كانت تراقب في تحركات بوطالب تكون قد أفضت في الأخير إلى أن هذا الشخص بات غير مرغوب فيه لا من جانب المخزن ولا من جانب الفرنسيين في المغرب.

نظرا لهذه المعطيات لم يكن هناك بُدا أمامه سوى العودة من جديد لأرض الوطن ومقاومة الاستعمار الفرنسي بالطرق والوسائل التي ستتاح له، وهذا ما سنعرفه في ا لعنصر الموالي.

عودته إلى الجزائر من جديد ثم نفيه منها مرة أخرى:

حسب رواية "ميشو بلار" يكون الحاج علي بوطالب قد أُبعد مجددا من المغرب باتجاه الجزائر في سنة 1884، لكن لم يتم استقباله بها من طرف الفرنسيين في الجزائر ؛ ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بإلقاء القبض عليه ونفيه مرة أخرى باتجاه المغرب؛ وعليه ظل الحاج علي بوطالب–حسب بلار– يتنقل بين المغرب والجزائر؛ ولذلك اتخذ قرارا بالتخلي عن الجنسية الفرنسية؟![33].

وإلى غاية هذه النقطة يفاجئنا "ميشو بلار" بمسألة الجنسية، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل الحاج علي بوطالب يعتبر في المغرب رعية ألمانية؟ أم رعية عثمانية؟ أم رعية فرنسية؟ أم مواطن جزائري مشرد ومطارد من طرف الشرطة الاستعمارية؟.

إن الإجابة عن مثل هذا السؤال في ظل نقص المصادر التي تناولت شخصيته يبدو سابقا لأوانه، وعليه فإننا نترك الفرصة للباحثين ولأنفسنا فيما بعد لعلنا نعثر على أجوبة لهذ ا الانشغال العلمي . هذا الجدل بخصوص رواية "ميشو بلار".

بينما تذهب رواية مصطفى بوشعراء بخصوص انتقال الحاج علي بوطالب إلى الجزائر إلى القول : إن علي بوطالب وبعد وساطته لدى بوعمامة يكون قد غادر المغرب باتجاه الجزائر للتشويش على فرنسا؛ فجمع من ذلك أموال طائلة واتصل بالألمانيين المقيمين بالجزائر، وكان غرضه العاجل هو الحصول على تأييد العديد من الطوائف الدينية السرية في العالم الإفريقي[34]. فنفهم من هذا أن علي بوطالب انتقل إلى الجزائر بمحض إرادته؛ ولم يكن بضغط من السلطات الفرنسية العاملة في المغرب.

ونحن هنا لا تهمنا بشكل كبير دوافع عودته إلى الجزائر من جديد؛ بقدر ما يهمنا استمرار نشاطه المعادي للفرنسيين في الجزائر؛ نشاط جلب له من جديد مآسي النفي للمرة الثانية والأخيرة باتجاه المغرب . حيث باشر بعد عودته مجموعة من النشاطات التي تدخل في إطار ربط تحالف ألماني– عثماني–مغربي ضد الاستعمار الفرنسي في كل من الجزائر والمغرب الذي بات قاب قوسين أو أدنى من فرض الحماية المزدوجة سنة 1912. وهذا ما سنعرفه في العنصر الموالي:

بوادر التحالف الألماني–العثماني–المغربي:

يمكننا تتبع نشاط الحاج علي بوطالب في التأسيس لهذا التحالف الثلاثي من خلال المحطات التاريخية التالية:

1–القيام بمساعي كبيرة جدا لربط وتثمين علاقة المغرب بالدولة العثمانية؛ خاصة وأنه كان هو المرشح لنيل منصب قنصلي أو دبلوماسي للدولة العثمانية بطنجة؛ وبناء على هذا الطرح يكون قد سافر خلال شهر أفريل 1885 نحو اسطنبول لتحقيق هذا الغرض ، وعلى اثر ذلك يكون السلطان عبد الحميد الثاني قد أرسل علي باي الجزائري مبعوثا عنه إلى المغرب ليختبر نية السلطان مولاي الحسن في توطيد هذه العلائق . فتوصل علي باي إلى أن السلطان المغربي لا يريد ربط علاقات مع العثمانيين اقترحتها ألمانيا وعارضتها فرنسا[35].

2–وأثناء العهد العزيزي قام برحلة ثانية إلى اسطنبول قصد الفوز بمنصب تمثيلها الدبلوماسي في المغرب؛ عندما اتضح لديه أن السلطان المغربي يرغب في توثيق علاقاته مع الدولة العثمانية؛ غير أن رحلته هذه باءت بالفشل كون الدولة العثمانية أعرضت عنه ورفضت الدخول في مذاكرات معه[36].

ويعود في نظرنا سبب هذا الإعراض إلى ما بات يتعرض له المغرب من تنافس أوربي حاد جعل العثمانيين يتريثون في فهم المصير الذي سيؤول إليه ذلك التنافس. كما يعود أيضا إلى الغموض الحاصل في شخصية الحاج علي بوطالب الذي تمكن من التعامل وفي آن واحد مع عدة أطراف هم أعداء في نفس الوقت؛ وكل طرف اعتبر بوطالب تابعا له وصديقا مقربا إليه.

ولا نستبعد أن يكون الحاج علي بوطالب قد مسك العصا من الوسط ولم يظهر عداءه بالقدر الذي يجعله منبوذ من الجميع، أي بمعنى آخر أراد التعامل مع هذه الأطراف بالقدر الذي يسمح له بنجاح رسالته النضالية ضد الاستعمار الفرنسي في كل من الجزائر والمغرب . وحتى مسألة الجنسية —وليس

التجنيس- التي تحدث عنها "بلار" فهي حسب رأينا تدخل في باب المناورات السياسية والدبلوماسية التي كان يخفي من ورائها شخصيته الحقيقية، وأفكاره التحررية المعادية لفرنسا.

ورغم فشل هذه ا لوساطة فمن غير المستبعد أن يكون الحاج علي بوطالب قد نجح في التمهيد لربط علاقات مغربية-عثمانية تكون قد نمت وتطورت مع مرور الوقت؛ ولعل تعامل الأمير عبد المالك فيما بعد مع الألمان والعثمانيين بالمغرب ضد الفرنسيين يعود إلى هذه الأرضية.

3-توجهه في سنة 1890 برفقة رجل الأعمال الألماني "ده كيرديك شيني" إلى مدينة فاس، ليقترح على المخزن شراء مدافع كروب[37]، قصد مواجهة الأخطار المحتملة التي باتت تهدد المغرب.

4-مرافقته للدكتور الألماني أوسكار لانز (Oscar Lenz) في رحلته من المغرب إلى تومبوكتو سنة 1879، وحصل على وسام النسر الأحمر بعد نجاح هذه المهمة. ثم انتقل للعمل مع أورديكا بين 1884-1886، قبل أن يصبح متعاونا مع المفوضية الألمانية في المغرب بين سنتي1905-1906[38]. وخلال هذا الأثناء أيضا قدم الحاج علي بوطالب خدماته لصالح أحد الخواص الأملان في المغرب وهو مانيسمان MANESSMEN المخ تص في البحث عن المعادن . وبعد هذا التاريخ مباشرة يستقر الحاج علي بوطالب بقية حياته في مدينة طنجة إلى غاية وفاته بها.

وما يمكن قوله في الأخير أن تعامل الحاج علي بوطالب مع الألمان كان لصالح الأمة الإسلامية، ولصالح الجزائر ضد فرنسا، بعدما نفته إلى المغرب الأقصى، وأن بوطالب وغيره من العناصر الجزائرية كانت تناضل خارج الجزائر في إطار إسلامي واسع، أكثر مما كانت تناضل من أجل وطنية إقليمية ضيقة[39].

وبالتالي فإن ما يروج من أفكار وكتابات مغربية حول اتهامه بالعمالة والجوسسة يندرج ضمن سياسة الإقصاء والتهميش لكثير من الوطنيين الجزائريين الذين كان لهم دور كبير في الحركة الوطنية الجزائرية-المغاربية.

وفاته:

توفي بمدينة طنجة يوم 3 ديسمبر 1909 الموافق لـ: 20 ذو الحجة 1327هـ[40].

خاتمة:

مما سبق نخلص إلى جملة من الاستنتاجات:

1. -إن نشاط الحاج علي بوطالب المناهض للاستعمار الفرنسي بهذا الشكل يؤكد لنا على المستوى الفكري الجزائري خلال القرن 19، مستوى راق جدا نعتز به ونفتخر به، وهو عكس ما روّجت له الأوساط الكلوليونيالية في الماضي وبعض الأوساط المحسوبة على العرب والمسلمين في وقتنا الحالي.
2. -قدرة الحاج علي بوطالب على التعايش مع الظروف الصعبة التي كان يمر بها فمن مهاجر إلى مطارد إلى منفي عن وطنه، وكل هذه الظروف لم تسمح له عزة النفس بالقبول بالتعايش السلمي مع الفرنسيين ولا بقبول وظائفهم الإدارية ولا امتيازاتهم وإغراءاتهم، وهو أيضا عكس ما تروج له بعض الأوساط العلمية الرسمية وغير الرسمية وتتهم الحاج علي بوطالب بالعمالة وبالجوسسة وبلعب أدوار مشبوهة وغامضة، ونحن من جهتنا نقول لو كمان الحادج علي بوطالب يبحث عن الشهرة لوجدها ولو كان يبحث عن المنصب أو الوظيفة لوجدها على غرار أبناء عمومته الذين قبلوا بالتعاون الإداري مع الفرنسيين في الجزائر أو في المشرق العربي.
3. -تعدد مصادر ثقافته وتنوعها، وتمكنه من اتقان عدة لغات عالمية جعلته يتمكن من إثبات وجوده على الساحة الدولية، ولذلك بات محل استقطاب واحتواء من عدة اطراف غير أنه لم يستكين لها، وظل محافظا على انتمائه الجزائري إلى غاية وفاته سنة 1909، أما بخصوص ما يقال حوله من مسألة التجنس بالفرنسية، فإننا نستبعد ذلك ولو حصل لما كان للمفوضية الفرنسية بطنجة أو بفاس ترفض التعامل معه لأنه في هذه الحالة يصبح رعية فرنسية، هذا من

جهة ومن جهة أخرى فنحن نستبعد ذلك لأن شخصية مثل بوطالب لا تستطيع فرنسا أن تسمح فيه بهذه السهولة وتدفعه للتعاون مع الألمان.

4. إذا كان الحاج علي بوطالب لم تسمح له الظروف بتحقيق حلمه في التأسيس لتحالف ثلاثي ضد الاستعمار الفرنسي في المغرب فإنه نجح في زرع بذرة هذا التحالف الذي سنراه يتجسد على أرض الواقع أثناء الحرب العالمية الأولى. وحينها نجد أن السلطات الفرنسية ندمت في تفريطها في التعامل مع بوطالب، وهذا ما جاء في تقاريرها الرسمية بهذا الشأن.

5. ليس هناك ضير أو ضرر في نظرنا في تعامل الحاج علي بوطالب مع الألمان ضد الفرنسيين في المغرب، فهم لم يكن بتاتا جسوسا على المغاربة ولا عميلا لأحد ولا مغامرا تعبث به الصدف والسياسة الدولية كما تشاء، بل كان ذو شخصية مستقلة يعرف كيف يتعامل مع هذه الأطراف وفق ما يخدم رسالته النضالية التحررية خارج وطنه . عكس بعض الشخصيات النخبوية التي تنكرت لوطنها وجاهرت بعدائها له، وفضلت العيش في كنف العدو الفرنسي.

الهوامش:

1-L, M: les musulmans Algériens au Maroc et en Syrie, Revue du Monde Musulman, février 1910, P. 266.

2– أثناء تحريرنا لهذا المقال ومن باب التنبيه نكون قد وقفنا على التباس كبير عند بعض الباحثين في الجمع بين الحاج علي بوطالب صاحب ترجمتنا وعلي أبي وطالب عم الأمير عبد القادر الذي بايع عبد القادر مباشرة بعد بيعة الشيخ محي الدين في البيعة الأولى، كما كتب خطابا في هذا الخصوص وقرأه على مسامع من حضر هذه البيعة، وقام بتحرير خطبة بليغة ومؤثرة سنة 1837 لإقناع معارضي الأمير بقبول معاهدة التافنا . فأثناء رجوعنا مثلا إلى الجزء التاسع من تاريخ الجزائر الثقافي وجدنا اسم الإحالات إلى التهميش في باقي الكتب الأخرى تجمع بين عم الأمير علي أبي طالب والحاج علي أبو طالب صاحب ترجمتنا . يراجع: محمد بن عبد القادر : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج . 1، ص–ص. 156-159. أبو

القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج . 9، ص. 64، فبخصوص الإحالات المتعلقة بالجزء 8 حول علي أبي طالب فهي تخص عم الأمير عبد القادر، بينما الإحالات المتعلقة بالجزء 5 فهي صحيحة وتخص صاحب ترجمتنا . هذا إلى جانب شخصية أخرى وهي علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

3–ابن عودة، المزاري: طلوع سعد السعود، ج. 2، ط. 1، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص. 147.

4-L, M: les musulmans Algériens au Maroc et en Syrie, op, cit, P. 266.

5-Edmond Michaux-Bellaire: les musulmans d'Algérie au Maroc; Archives Marocaines, Volume XI, année1907, PUBLICATION de la MISSION SGIENTIFIQUE DU MAROC, Paris, KRAUS REPRINT Nendeln/ Liechtenstein, 1974. P. 48.

6-Ibid, P. 49.

7-Ibid, P. 49.

8-L, M: les musulmans Algériens au Maroc et en Syrie, op, cit, P. 266.

9- Ibid, P. 266.

10–يراجع بهذا الخصوص ما كتبناه حوله في مقالنا الموسوم بـ : أبو حامد العربي المشرفي وتراثه المخطوط بالمغرب الأقصى، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع. 24، ص–ص. 223–252.

11-L, M: les musulmans Algériens au Maroc et en Syrie, op, cit, P. 266.

12-Ibid, P. 266.

13-Ibid, P. 266.

14–يراجع بهذا الخصوص تاريخ الجزائر الثقافي، ج.4، ص–ص. 483–486.

15-L, M: les musulmans Algériens au Maroc et en Syrie, op, cit, P. 266**.**

16–تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، المرجع السابق، ص. 525.

17-Edmond Michaux-Bellaire: Les musulmans d'Algérie au Maroc, op, cit, P. 13.

18–معلمة المغرب، المغرب: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، 1413–1992، مج. 9، ص. 2987.

19–يمكن مراجعة دوره في بلاد الشام من خلال أطروحة الأستاذ لعميد عبد العزيز الموسومة بالشيخ طاهر الجزائري ودوره في المشرق العربي (بلاد الشام أنموذجا).

20–يمكن مراجعة ثورته في المغرب الأقصى ضد الاستعمار الفرنسي 1914–1924 أطروحتنا للدكتوراه الموسومة بالمهاجرين الجزائريين ودورهم السياسي والثقافي والاجتماعي في المغرب الأقصى 1830–1930.

21–يمكن مراجعة بهذا الخصوص مقالنا الموسوم علي الحمامي ونضاله التحرري في العالم العربي والإسلامي 1902–1949، مجلة الباحث، ع. 1، التي تصدر عن المركز الجامعي بالوادي.

22–يمكن مراجعة بهذا الخصوص أطروحة الأستاذ آيت بعزيز عبد النور لنيل أطروحة الماجستير حول الفضيل الورتلاني.

23–تعتبر أول جريدة عربية ظهرت بالمغرب، وهي جريدة أسبوعية إخبارية علمية أدبية؛ أسسها المحامي الفرنسي دانيال سوران D. Saurin، وكان محرراها الرئيسيان هما اللبنانيين عيسى فرج وسليم كسباني؛ صدر العدد الأول منها يوم : 14 رمضان 1306هـ/ 15 ماي 1889، وكانت تصدر في شكل أربع صفحات، صدر منها حوالي 30 عددا ثم سرعان ما اختفت من الساحة في نفس سنة صدورها . يراجع: مصطفى، بوشعراء: **الاستيطان والحماية بالمغرب**، ج. 4، ص. 1478.

24–مصطفى، بوشعراء : **الاستيطان والحماية بالمغرب** (1280–1311هـ / 1863–1894م)، ج. 4، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط . 1410هـ/ 1989م، ص. 1478.

25–المرجع نفسه، ج. 4، ص–ص. 1480–1481.

26–المرجع نفسه، ص. 1480.

27–المرجع نفسه، ص. 1481.

28–أحد أعيان المليانيين الجزائريين المهاجرين بالمغرب الأقصى والمستقرين بمنطقة الغرب بأولاد عيسى، يتكون دواره من 25 دارا، و130 نسمة، 10 خيول، 1000 رأس من الغنم، 200 رأس من البقر، 30 محراثا، ألقي عليه القبض من طرف قائد أولاد عيسى التابعة إداريا لفاس في سنة 1905 ونقله مكبلا بالسلاسل إلى سجن فاس . وتكمن قضية بوزيان المليانى في عدم اعتراف المخزن بصفته الجزائرية كونه متحصل على الجنسية الفرنسية ونعتقد أن هذا الأخير يلئون قد طلب الحماية من فرنسا التي عدّت هؤلاء المحميين بمثابة رعايا لها في المغرب. يراجع:

Paul, Decroux: **Les Algériens Musulmans Au Maroc, condition juridique et sociale, P. 6.**

ومن غير المستبعد أن يكون الحاج علي بوطالب يتقن اللغة الألمانية.

29–اسمه الكامل Saint-René Taillandier Geàrges عينته فرنسا وزيرا مفوضا لها بطنجة منذ 18 أفريل 1901 وظل في منصبه إلى سنة 1906، أشار إلى هذه القضية في كتابه الموسوم بـ:

Les origines du Maroc Française

30–محمد، أمطاط: **الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830–1962**، أطروحة دكتوراه، تحت إشراف الدكتور محمد كنبيب، ك . آ. ع. إ، جامعة محمد الخامس أكدال–الرباط. السنة الجامعية 2004–2005.

ص. 128.

31-Paul, Decroux: **Les Algériens Musulmans Au Maroc, condition juridique et sociale**, Extrait Du Recueil de Législation et de Jurisprudence Marocaines, Boulogne-Sur-Seine, 1938, P. 6.

32–مصطفى، بوشعراء: **الاستيطان والحماية بالمغرب** (1280–1311هـ/ 1863–1894م)، ج. 4 المرجع السابق، ص. 1479.

33-Edmond Michaux-Bellaire: Les musulmans d'Algérie au Maroc, op, cit, P. 13.

34–مصطفى، بوشعراء: **الاستيطان والحماية بالمغرب** (**1280–1311هـ/ 1863–1894م**)، ج. 4، المرجع السابق، ص. 1479.

35–المرجع نفسه، ص. 1479.

36–المرجع نفسه، ص. 1479.

37–المرجع نفسه، ص. 1479.

38-L, M: les musulmans Algériens au Maroc et en Syrie, op, cit, P. 266.

39–احميده، عميراوي: **الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية 1830–1930**، المرجع السابق، ص. 75.

40-L, M: les musulmans Algériens au Maroc et en Syrie, op, cit, P. 266.